الحلقة المفقودة من سلسلة أدباء لبنان :

الشباب الذاوي

بقلم جرجي ابرهيم نصر

في الحياة الغازٌ وأسرارٌ : لا يُدرك كنهها ، ولا يُسبر غورها . يحتار لها العقل فيما اذا حاول استجلاء غوامضها .

كم من حاملٍ علا اسمه ، وأشرق نجمه ، وطابت له الحياة ، وكم من نابغٍ عاش في البؤس والشقاء ، حتى كفّنه الردى .

واذا القينا نظرةً عابرةً على حياة النوابغ ، رأينا ان قافلةً كبيرةً من الملهمين ، مرّت على مسرح هذه الدنيا كالخيال ، لم تترك إلاّ آثارًا كادت تندرس ، وذكريات محزنة تبعثُ الى النفوس الحسرة والألم .

وها نحن أمام خمسة من هؤلاء الملهمين ، شقّوا للنبوغ طريقاً ، فعاكسهم القدر الغاشم ، وحطّم آمالهم ، فأفل نجمهم قبل الأوان ، ولو مدّ الله في أجلهم ، لرأينا لهم آثارًا كريمةً ، وآياتٍ خطيرة .

واظهارًا للعدل ، وبُعدًا عن سياسة الحسد والغدر والأنانية ، ننشر سير المبدعين من مواطنينا ابناء بكاسين من أيّة أسرةٍ كانوا ، والى أيّة فئة انتسبوا أو انتموا .

واننا نقدّم للقراء الكرام سير خمسة نسور منهم ، حلّقوا في سماء الأدب والفكر ، وتفوّقوا بسموّ مداركهم ، ولكنهم ما لبثوا ان غيّبت شموس نبوغهم ، وأطفئت شعل ذكائهم ، فأصبحوا خيالاً وأثراً .

ولا أكتم اني لقيت جهدًا مضنيًا في البحث عن ماضيهم وانتاجهم .

الدكتور بشاره الخوري

١٨٨٣ – ١٨٥٤

كان زهرة يانعة في بستان الذكاء : ينبعث منها النور كانبعاث أزهر من الأكمام ، والعطر من الأزهار : لكن ما لبثت ان اصفرّت أوراقها وتناثرت ، بعد ان تناولتها الأرياح ، وعبثت بها العواصف : فخلتها في المهد : ولمّا تتفتّح أكمامها بعد للنور . فتلاشى الشفق سراعاً .

هو بشاره ابن الخوري اسطفان الخوري وماريا مبارك غنطوس الخوري . وُلد في بكاسين في ٢٠ من ت٢ سنة ١٨٥٤ [1] ومات في الاستانة سنة ١٨٨٣ . بدأ دراسته في بلدته على يدّ والده ، وعلى محيّاه ملامح النجابة والذكاء . ثم أتمّها في مدرسة غزير للآباء اليسوعيين . وكان في غاية الاجتهاد والرغبة . ثم طلب المزيد من تحصيل العلوم والمعارف . فانتقل الى الاستانة وهي في أوج مجدها : وأبّهة سلطانها : ومحطّ أنظار العثمانيين ومطمح طلابهم : يقصدونها من كل حدب وصوب من أنحاء السلطنة . فأكبّ على تحصيل العلوم الطبيّة في المكتب السلطاني : واضعاً نصب عينيه اقتباس العلوم : وأن لا يدع فرصة تذهب سدىً من الوقت الثمين . فتهلل من ينبوعها غزيراً : وتفوّق بعد جهاد مستمرّ على سواد علماً وأدباً وطموحاً .

إلاّ ان بعاده عن أهله ووطنه : كان يزيده ألماً وغمّاً . فتطوف في مخيلته رسومٌ وأشباحٌ وأحلام وخواطر هذا الجبل المنيع . فتلعب القصّات في حنايا فؤاده : والذكريات في نفسه . وبعد أن اجتاز امتحاناً عسيراً : كان فيه في طليعة الطلبة المتفوّقين : قرّر ان يمضي اجازته في وطنه : فعاد اليه في صيف ١٨٧٥ حاملاً ثمار أدبه وجهوده : فكان للقاء مشهد رائع : فأقبلوا يهنئونه ويثنون عليه : ويتمنّون له طيب الإقامة في ربوع الوطن . فطاف في أنحائه مع أخيه ابرهيم — وسنأتي ترجمته — مسحوراً بجماله وتكوينه وابداعه : يروي غليله بمناظره وسحره : وانتهت اجازته . وتأهّب للعودة لإكمال علومه الطبيّة : فانقبضت القلوب : وحمّت العيون بالبكاء : وكانت ساعة الوداع مؤلمة شديدة الوطأة على جميع القلوب .

وسار على بركة الرحمان عائداً الى الاستانة حيث توطّن فيها ، وعاد الى اتمام علومه بعزيمة ماضية ، حتى نجح نجاحاً تاماً في امتحاناته الأخيرة ،

---

١) نقلاً عن سجل احصاء قضاء جزين المحفوظ المحفوظ في مديرية الآثار .

وأحرز الديبلوم في الطب ونال اعجاب اللجنة الفاحصة ، وعُيِّن استاذاً في المدرسة الطبية . ومعلماً في المدرسة الحربية . وصار له صيتٌ بعيدٌ . وأخذ يعالج الفقراء بما فُطر عنه من الرحمة والإنسانية .

قيل انه أبرأ إبنةً غنيةً وحيدةً لوالديها . عجز الطب عن شفائها . وقد تزوجها فيما بعد وهي على غير دينه . وأنجب منها أولاداً . وتوفي في ظروف غامضة وجُهِل مصير أبنائه . وقد أسف الجميع لفقده . وبكوا فيه طبيباً نابغاً . كان يُرجى منه الخير لوطنه لبنان . لما حلّى به من أدب وعلم وذكاء وخلق رفيع .

هكذا قضى الطبيب بعيداً عن الديار . وقضت معه أحلام وآمال . وخبا نوره وعراه الخسوف وهو في عمر الورود . تاركاً في قلب أهله وذويه جراحاً لا تندمل .

ولمّا تلقّى والده الخوري استفان نعيه في بكاسين في اوائل حزيران ١٨٨٣ هاله المصاب الأليم . وانخطب الجسيم . وبكى شبابه . ودماثة خلقه ، ورقّة شمائله . وفاضت عواطفه بالحزن العميق . والألم الشديد ، وقد صبغت صورة الفاجعة قلبه بطابع . حزين . كئيب . واستمرّت العوامل النفسيّة ، والفكريّة ، تتفاعل في قلبه . وفي صدره . فترة طويلة من الزمن . وتراكمت على حياته الهموم والأرزاء ، وتوالتْ عليه النكبات والمحن . وتشاءم في الحياة ، بعد أن شعر بالخيبة ، وخيبة الأمل . وعبّر عن مصابه وألمه ، بكلمة دوّنها في سجلّ الوفيات ، يصف فيها أشجانه ، ويصوّر أحزانه وهذا نصّها :

«تلقيتُ خبراً مرعباً أحرق قلبي ، وهو وفاة ولدنا الحزين بشاره في الاستانة ، يا ليت يدي تحت التراب ، قبل ان خطّتْ هذه الأحرف . وهذه مشيئة الله قد تمّت ، فليكن اسمه مباركاً للدهر» .

ثم علّق في آخر السجلّ كلمة ثانية عن حياة الفقيد الكريم جاء فيها قوله :

«وبشاره من بعد ما درس العلوم ، توجّه الى الاستانة ، وتلقّن الطبّ وأخذ الديبلوم ، وتعيّن حكيماً في (شنك) قلعة حكيم العساكر السلطانية ، ولم تطل المدة حتى توفي في الاستانة العليّة ، وكان له من العمر نحو سبع وعشرين سنة» .

وقد وقفنا على رسالة للطيب كتبها وكتب معها وصف رحلته الى الاستانة ١٨٧٦ بخطّه ؛ بعث بها الى نسيب له في بكاسين تطفحان بالغيرة والمحبة والشوق . وفيها يبدي حزنه وأسفه لمفارقة الأهل والأوطان . ويظهر خوفه وقلقه من هذه الرحلة . ويصفها بقوله « ولعلّ تلك الساعة تكون الأخيرة » لذلك أشبع نفسه من مناظر وطنه الخلابة . وتمتّع بمحاسنه الغزيرة قبل رحلته الأخيرة منه .

وقد رغب اليّ المأسوف على علمه وأدبه المرحوم ابرهيم ابو شقرا غانم (١٨٦٦–١٩٤٢) نشر الرحلة في احدى المجلات الأدبيّة والتعليق عليها ؛ لكن المنيّة عاجلته ؛ فظلّت مطويّة وهذه هي : :

خرجتُ من البيت نهار الأحد الساعة الخامسة من النهار اول كانون الثاني ١٨٧٦ قاصداً الإستانة فكانت ساعة انشقاق مصيبة لا تُطاق ولا يضرب لها بالإملاق . مفارقة الأهل والخلان والأحباب والاقران ؛ والبعد عن الأوطان ؛ فكنتُ حزين الفؤاد مجروح الكبد مفتكراً بسفر طويل وبعد شاسع يخوض الأبحار ومقاسات الأخطار بالأهوال والمشقّات والمصائب والبلوّات ؛ فكان يخطر لبالي بأنه ربما تلك الساعة تكون الأخيرة والنظرة الوحيدة التي بها يمكنني ان ارى وطني وأهلي وأحبابي ؛ فامتلئي ايتها العين من رؤية الحبيب فلينطبع شخصه أمامك لكي دائماً تروي غليلك برؤياه ولو عن بُعد ، ولكن الطرف سحّ بهطل الدمع وغاب عن نظره الحبيب ، فأصبحت مثلّ مَن فقدَ وحيده ؛ منشغل البال قاطع الآمال ؛ فودّعتُ الجميع بحزن لا يوصف وغمّ لا يُقدّر وما كنت اسمع بجانبي سوى صوت النحيب والتنهّدات والبكاء والحسرات التي كانت تمزّق أحشائي فحينئذ ندبتُ عيشة تعسة مملوءة من الأحزان والأخطار والهموم والأكدار وتأسفتُ على غربة طويلة وبالخصوص على طبيعة الانسان البشرية ، فاتكلت على الله وعلوتُ ظهر الجواد وبدأتُ بالمسير جسماً لا عقلاً فبعض الأصحاب واخي من فرط حبّهم ذهبوا معي مسافة طويلة فتودّعنا ايضاً بذرف الدموع متحسّرين على زمان الاجتماع . فبدينا نقطع الفيافي والقفار متأسين من حرّ النهار وانشغال الأفكار حتى وصلتُ الى المحل الموجود به انسي وحشاشة كبدي فحينما قرّت عيني برؤياه تسلّيت نوعاً ومكثت عنده تلك الليلة حتى اصبح الصباح ونور الشمس سطع ولاح نهضت من رقادي مودعاً أخي واين عمي بقلب كئيب وحزن مذيب ، فنحبتُ حينئذ غربتي وندبتُ

حظّي وبدأتُ بالمسير قاطعاً تلك السهول والسواحل البحرية . مقاسياً عذاب الحرّ في تلك الجهات القليل ماعدا حتى وصلنا الى محل يسمّى رأس العين فكان امنى المسافرون ان نمكث هناك تلك الليلة . فسألت عن حجرة لكي أنام بها فما وجدت محلاً مناسباً نظراً لنحرّ والأوساخ الموجودة في تلك النواحي فذهبتُ الى مرجة خضراء محاطة من المياه العذبة التي تشرح البصر وتبهج النظر . تزيل الهموم وتجلي الغموم . فما خطر لذهني سوى رؤية المحبوب والاجتماع به في ذلك المحل لأنه لا يعجبني منظراً جميلاً الاّ لأنه هو أجمل منه وكل شيء من الجمال أجد فيه ذللاً من بعد التبصّر به سوى هو وحده فريد بدون خلل وذلل . فمضيتُ كم ساعة من الليل على هذا الحال وأسرعتُ الى المسير عند انبثاق الفجر حتى وصلتُ الساعة الخامسة من النهار الى عكا لدار سيدي العم ابرهيم[1] فمكثتُ هناك اربعة ايام ونهار السبت مساءً توجّهت الى حيفا لأجل ان أركب في الثابور النمساوي الذي يحضر ليلاً فمكثتُ هناك تلك الليلة عند اولاد عمي[2] وليلة الاثنين ركبتُ في الثابور ماراً ببيروت ومنها الى الاستانة . فنهار الاثنين صباحاً وصلنا الى بيروت فخرجتُ مسرعاً من الثابور الى المدينة لكي أنظر رفاقي هناك حسب المفارقة ولكن منظر بيروت ما كان الاّ لعذابي مخطراً بافكاري اوقات الفرح والسرور والطرب والحبور زمان الاجتماع بهجة الفؤاد وحشاشة الكبد ذلك الوقت السعيد الذي طرفته بها حين حضوري من الاستانة . فبدأتُ أجول بها حتى اجتمعتُ بأرفاقي جميعاً حينئذ خطرت ليالي الإستانة وزمان المدرسة . فبدينا جميعاً نجول في شوارع بيروت حتى أنه أمسى المساء وبتنا تلك الليلة هناك بخط وانشراح واستماع الاصوات العذبة والآلات المطربة . وكان ذلك النهار كامل نظراً لبُعد الحبيب ومفارقة الأهل والخلان . فنهار الثلاثاء مساء ركبنا صحبة الثابور النمساوي المتوجّه الى الاستانة . وكنا قبل نزولنا في الثابور سألنا عن « الكرنتينا » فأخبرونا انها خمسة أيام بالقرب من أزمير قبل وصولنا الى الاستانة بيومين . فبدينا نقطع الفيافي والقفار خابضين مياه البحار . مقاسيين من الأخطار والأكدار ما لا يُقدّر حتى وصلنا الى جزيرة صغيرة تسمّى جزيرة الانكليز . فرأينا هناك أبنية جديدة في تلك الجزيرة التي تبعد عن أزمير مسافة ساعتين في البحر . فرمى الثابور هناك وخرجت جميع الركاب الذين كانوا في الثابور الى البرّ فكنا نرى بعض

(١) ابرهيم نصرالله الخوري .
(٢) سليم نصرالله الخوري وشقيقه ابرهيم .

أناس في تلك الجزيرة الذين كانوا يفرّوا هاربين من قدومنا إليهم كأننا أتينا لمبارزتهم أم كأننا حاملين الموت بين ايدينا وكأنّ الهواء الأصفر هو موجود معنا حتى أنهم اذا اقتربوا منا أم لمسونا يُصابين بأذى ، فذهبنا نعند مدير «الكرنتينة» وأمر لنا بمحل مخصوص بنا . فسألناه مدة اقامتنا هنا أجاب سبعة أيام فاخليتُ في محل بتلك الجزيرة ناشدًا هذه الأبيات :

فارقتُ أهلي واحباباً بهم شُغفتْ ... نفسي الكئيبة فازداد العنا وجلا
فيا مواطن كم ابكيك وا أسفي ... بأدمعٍ أخذت في لوعتي مثلا
لو أنها لبحار الماء قد نزلتْ ... لأغرقتْ مركباً فيه اذا نزلا
تركتُ في ربعك المسعود طالعُه ... شمساً لنظرها نجمُ العلى خجلاً
غيداء مذ لمعتْ أمسيتُ مشتعلاً ... شهباء مذ سطعتْ أصبحتُ منشغلا
رقيّ لحال فتىً خاض البحار وقد ... رماه عشقٌ لتلك الشمس فانذهلا
وبعلما حلّ بي حلّت ركائبنا ... بقرب (أزمير) ارضاً تقطع الأملا
أرض (الكرنتينة) المجهولُ ناظرُها ... أظنّه أحمقاً لم يفهم الجملا
يرومُ يبلعنا يا ليتها بلعتْ ... عيناه من ألمٍ من قبل ان نصلا
ومعه قومٌ من الأتراك تحرسُنا ... تأبى ما كل إلاّ البازَ والحجلا
عورٌ وصمٌ وخرسانٌ قد اجتمعتْ ... فاعجب لربعٍ غريب الجنس قد شملا
كنّا بأرض هي النقراء إن لمستْ ... راحاتُنا أحداً من أهلها جفلا
كأنّنا الجنّ جئنا كي نبارزهم ... ونأخذ الروح أو نقضي لهم أجلا
فخمسة نحن لكن جاء شركتنا ... ملازم فرّ للمصروف مذ ثقُلا
والكلّ لم يُنسني ناراً قد اضطرمتْ ... وسط الفؤاد ، فأمسى الجسم مشتعلا
أصبو إلى وطني المحبوب ما صدحتْ ... بلابلٌ وهلالٌ في السماء علا
وليعلم الناسُ أني عاشقٌ وَلِهٌ ... أبكي بأحمر دمعٍ جارحٍ هطلا
وانني سيّدُ العشاق كلّهم ... ويعرفُ الأمرَ مَن عن صبوتي سألا
أنا المغرّبُ عن ربعٍ به بقيتْ ... روحي ، فأصبحتُ جسماً صار منهزلا
فلمعتي تحرقُ الأحجارَ لو نزلتْ ... أمامها ، وغرامي يُرجفُ الجبلا
فيا إلهي اذا طالَ الفراقُ فهل ... من مؤنسٍ خلقه قد جاوز العلا؟
ولا أدومُ بعشقٍ زائدٍ وعنىً ... وصبوةٍ وغرامٍ ليس محتملا

لكنَّ رجائي العلياء تُرجعني لبقعة في حماها الحسنُ قد كملا
وأنت تغفرُ إثمي والذنوبَ ومـا هذا الفقيرُ من الذلاّت قد فعلا

٥

ففي يوم ما ونحن في «الكرنتينة» نبضنا صباحاً من رقادنا فوجدنا ضجّة قويّة بين الأهالي الموجودين هناك فسألنا عن سبب ذلك فأخبرونا أن رجلاً من الركاب صابر له جريان ولا يعلمون من هو بل وجدوا بعض الملابس مطروحة عند باب الأدب . فحالاً أعطوا خبر الى حكيم الكرنتينة الذي حضر سريعاً وأخرج جميع الناس خارجاً لأجل الفحص عن المريض فأخبرناه انه يوجد بعض العساكر الآتية من اليمن المصابة بأمراض وبائية فأخرجهم حالاً وفحصهم مدقّقاً وأمر بأخذهم الى محل فحوص معيّن للمرضى ؛ فبعد التوقيف اخيراً من الحكيم رأى بأن الملابس الملوّثة تخص رجل أرمني طاعن في السنّ فأمر ايضاً بارساله الى الاستخانة ؛ فكنتُ في ذلك الوقت انظر الى الجميع ما أرى سوى وجوه مصفرّة والحزن والرعبة في قلوب الجميع ؛ لأن خوف الموت لا يشبه خلاف شيء وكل انسان يموت مرة واحدة ؛ فحينئذ كنتُ اتصوّر بفكري بأنه اذا مات أحد باطوا الأصفر في الكرنتينة حسب النظام ملزومين بأن تمكث هناك اربعين يوماً واذا بعد النهار الأربعين أصيبَ أحد يقتضي ان تمكث اربعين يوماً آخر وهكذا الى آخره ؛ هذا خلا عن الخوف الذي يحيق بنا وربما لا سمح الله يُصاب أحد منا ؛ فكيف يكون العمل مع عذاب المعيشة في تلك الجزيرة الصغيرة ؛ فكل هذه الافكار كانت تحاربني جالبة عليّ الهموم والغموم ؛ حينئذ رفعتُ عيناي الى السماء قائلاً : إلهي الى كم من المصائب والبلوات اعرضتني ؛ والى كم من المتاعب والمشقّات طرحتني ؛ فرقة الأهل والخلان والأحباب والاقران ؛ والابتعاد عن الأوطان ؛ سفر الابحار ومقاسات الأخطار واحتمال البلايا والأكدار والتعرّض الى الامراض الوبائية والاسقام المعدية التي لا شفاء منها ؛ فكم هي جسامة عقل الانسان لاحتمال هذه الداهية الدهياء والبلوة العظماء ؛ فما الحيلة والتدبير ؛ والعمل والتيسير ، فلتكمل ارادته تعالى ، فما لي سوى الصبر حيلة ؛ وما لي سوى الاحتمال بصبره ، هطل الدمع من عيناي وتمزّقت احشائي قائلاً :

تبّاً لـوقت أتى بالهمّ والكرَب وبعداً لدهر مضى بالرغـد والطرب
مضى زمـانُ الصفا والتعسُ جاورنا وحان وقتٌ به البلوى مع العطب

فمكثنا على هذا الحال حتى انه مضت مدة الكرنتينة اي السبعة أيام التي كانت تخال لذهننا كأنها سبعة أعوام على سلامة ؛ فقبل ان نركب الى الفابور حضر ناظر الكرنتينة لأجل قبض الدراهم المفروضة على كل شخص ؛ فنحن حسب النظام العسكري ما له حق بأن يأخذ منا ولا بارة واحدة ولكن حسب نظام الناظر يريد يأخذ منا مثل باقي الاشخاص . فأظهرنا له العصيان وبعد معاجة عظيمة دفعنا له ثلث القيمة ورجعنا الى الفابور من بعد توديع ذلك المنظر المكرب وذلك المنفى الحقير واللعنات على ذلك المحل وعلى تلك الأرض بالاجمال . وشكرنا الباري على خلاصنا بالسلامة ؛ وبعد مضي ساعتين من قيام الفابور وصلنا الى « أزمير » تلك البلد الشهيرة المتقنة الأبنية والعمارات وتلك المباني الجميلة الجديدة المنظر والأبنية ؛ فكانت حينئذ الساعة العاشرة من النهار . فكنا نرى الناس تأتي بازدحام الى شاطئ البحر فكان الهواء جيد والجميع خارجون من اشغالهم والبعض في بيوتهم لأجل التنزه والانشراح وعند تلك المباني يوجد قهاوي عديدة ومحلات للملاهي والملاعب ؛ فكان ذلك المنظر يبهج النظر ويشرح البصر ؛ فخرجنا الى البلد لنشتري بعض أشياء ضرورية مأكولات وغيرها ورجعنا مساء للفابور وبتنا تلك حتاك ؛ فبينما نحن غارقون بأبحر النوم لأجل راحة جسمنا من بعد تلك العذابات . والا باحد أرفاقنا نبض من غفلته ناظرًا الى العلاء فوجد بان الغيوم تراكمت وتغيّر الهواء فأيقظنا جميعاً وذهبنا الى محل لا يحكمه المطر ؛ وجلسنا هناك مدة من الزمن ؛ فتكاثفت الغيوم وبدا المطر ينهمر بغزارة من الجهة الشمالية مع نسمات باردة ؛ فكنا نسمع الصراخ من كل جهة وناحية ، نحيب وعويل الأطفال . ضجيج وولولة الوالدين ؛ الرجل يسرع هائماً من كل جهة لأجل تدبير محل لأمرأته ؛ فصارت الناس تزدحم في محل صغير غير محكم للمطر ؛ فمضت تلك الليلة فصارت على هذا الحال بعذاب أليم ؛ فعند الصباح ذهبنا الى عند أحد قباطين الفابور ودفعنا له مقدارًا من الدراهم واخذنا حجرة بها احتمينا من المطر حتى وصلنا الى دار السعادة ؛ وكان قدومنا اليها ثاني يوم من عيد رمضان ؛ فحين رسى الفابور رأينا البعض من ارفاقنا أتوا لمقابلتنا وكان ذلك بفرح وسرور وطرب وحبور شاكرين حامدين الباري تعالى على وصولنا بالسلامة الى وطننا الحالي الذي هو الاستانة ، فذهبنا لرؤية الأحباب والأصحاب وقد مضينا تلك الليلة في الملاهي والملاعب واستماع الاصوات العذبة والآلات المطربة وبعد ذلك دخلنا المدرسة بفرح وسرور وقابلنا الناظر الذي سألنا

عن سبب تأخرنا فأخبرناه بما جرى لنا . مقدّمين له الورقة التي أخذناها من بيروت من قومندان العساكر . شهادة بان القابورات ما كانت تأخذنا في مدة المرض . فتأسف على ما جرى لنا من العذاب وأمر لنا بالانصراف . فبدينا نكدّ مجتهدين في اكتساب العلوم ، متكلين على عزّته تعالى غير مبالين بما جرى . ياعدين من ذهننا كل هذا . مفتكرين بما هو آئل لنفعنا الخصوصي وهو اكتساب العلوم الرياضية والفنون الطبّية .

ابرهيم الخوري

١٨٦٨ — ١٨٩٧

كالزهرة اليانعة التي تنبتُ في الحقل ، وتعطّر ما حولها بأريجها العطار ، هكذا نبت ابرهيم في تربة ذكيّة خصيبة . وتلألأ الذكاء في نفسه ، وتفجّر جداولاً من ينابيع المعرفة والعلم ، وكانت ترتسم على محيّاه علامات الذكاء . ومخايل النجابة ، فتوسّموا به خيرًا .

أبصر النور في بكاسين في ١٨ من ت ٢ ١٨٦٨ وتلقّى مبادئ العلوم على والده الخوري اسطفان فأظهر ميلاً شديدًا للعلوم والآداب على غرار شقيقه الدكتور بشاره — الذي تقدمت ترجمته — ثم أدخل دير الكريم للمرسلين اللبنانيين ، فبقي فيه ثماني سنوات ، فنال شهاداته بتفوّق واعجاب في العربية والفرنسية والسريانية ، وانتقل الى مدرسة مار عبدا هرهريا ، فدرس علم اللاهوت الأدبي والنظري والفلسفة ، ثم عُيّن معلّماً في مدرسة عين طورة . فوقف جهده على تربية الناشئة وصقل أخلاقهم ، ونظراً لاجتهاده ومواظبته على العمل ، ساءت صحّته . فنصح له الأطباء بالراحة والاستجمام في بلدته بكاسين ، فسار اليها مستجمعاً زهاء أربعة أشهر ، وتحسّن تحسّنا ملموساً ، ولكنه لم ينقطع عن المطالعة ، وتحبير المقالات ، ونظم القصائد ، والتنقيب ، والمراجعة . ولمّا أبلّ من مرضه رجع الى تلاميذه ، فازدهرت المدرسة في عصره ازدهارًا كبيرًا .

واشتهر رحمه الله بحدة الذكاء ، وعمق التفكير ، وصحّة الرأي ، ووفرة الاطلاع ، والخبرة الواسعة في التعليم . وخطّ في الأدب مقالات أدبية وفلسفية ، وخواطر شعرية رصينة ، كأنها موجات من الأثير ، تطفو على أدب رفيع ، تدعمها القوّة والبلاغة ، في الخلق والتصوير والتفكير ، منها

ما كان يرسله على صفحات الجرائد كالموج الصاخب : يدعوه الى حبّ الوطن ، وبناء دعائمه ، على أسس متينة ، ونبذ الأحقاد ، والبُعد عن الانتقام والتفرقة .

أغرته الهجرة وحبّ التغرّب والبحث واكتشاف بلاد يستطلع المجهول من اخبارها ومقاتنها . ملتحقاً بمواطنين سبقوه اليها : فهاجر ١٨٩٦ الى البرازيل فجدّ هناك وكدّ لكن صحّته هزلت وانحطت قواه وانتابته العلل والامراض فزرح تحت وطأتها فقفل عائداً الى بلاده وما كان حظّه في الحياة بأجمل من حظ أخيه الدكتور بشاره وما كاد يشعّ نوره حتى اخترمته المنية في مرسيليا وهو في طريق عودته الى وطنه لبنان في العشرين من تشرين الأول ١٨٩٧ ولم يمهله الموت ان يكحّل عينيه برؤى وطنه وينعم بالراحة تحت ثراه فقضى غريباً كئيباً ، وفقدت معه آثاره وخواطره : فخسر الأدب بموته نوراً من انواره وانغلقت الأكمام على زهرة ندية ضوّعت الاسحار باريجها الفوّاح .

وقد عثرنا على صورة خطاب القاه في مدرسة عين ورقة الشهيرة وهو دون العشرين اثناء تمثيل رواية ، نزين به مفرق هذه المجلة الزاهرة : أحببنا أن ننشره مثالا لما كان عليه نسق الكتابة والانشاء في عصره .

ايها السادة الكرام

لا بدع ان ما يوفّر مادة العقل ويهذّب السيرة والسريرة ويؤدّب في الأحوال المعاشية انما هو المعارف والعلوم الأدبية التي منها يتطرّق الى انسانية . كيف واننا نرى ان كلّ أمة نجحت أو تسلّقت الى ذروة المدنية من حياة الخشونة والتنزّل كان أمرها موكولاً الى تقدمها ونجاحها ونموّها في المعارف والعلوم سواء أكان مادياً أم أدبياً . فالعلم زينة بها يتحلّى العقل ويتجمّل ويزهو ، وحلية يتفجّر في النفس ينابيع حكم ، بها تتدبر في كلما يطرأ عليها من الكوارث والبلايا ، وتنظر في عواقب الأمور ، وتتبصّر بها بتحكّم الجاهل ، فيرعوي التهقرى مرشداً ، وطريق منية القرار بها . يتّضح العامة الباطل وجنوح الصبح الذي يجني ولا بد .

وان المعارف والعلوم هي أحد الأمور التي تؤدي الى فلاح العمران ، لا بل هي جوهرٌ له مناعة الإلفة البشرية ، وأحد الأعمدة التي عليها يستند وبها يعتضد ، انما لا واذا ما خلا الإنسان منها عاد أشبه بالهوينا ، وعوائله

وشقائقه الانسانية والذوق . فضائل يوقّر احداً لا جسداً منذ لا يميّز بين العالم والجاهل . فكان لديه الحكيم والبهيم . وحال الناس أجمع شرعاً واحداً . فامتهن هذا من ازدرى ذاك على السواء . ذا علم كان أو غارقاً في حنادس الجهالة ام تائهاً في فيافي الخشونة . ولعمري انه لا شيء يضاهي العالم قيمةً وثمناً . فهو أرفع من ان يوصف . وأعلى من ان يسمت . وبدونه تتوه القيم . ما يشتدّ في النفس لا تستطيع حراكاً . اذ ليس ما يفتات به او هي اعتزّت بما للرجال الناطق من الأمور الحسّية البدنية فقط . وأمست لا تستقرّ الا بها . فاتخذت مواقيع سمجة تشتغل بها دون غيرها . واتخذتها ديناً في كلما عملته . وعلى سائر الأحوال . فقد ضلّت عن مصدر غايتها وانحرفت عنه كل الانحراف . وليس العلم حقيقاً بأن يعتبر اذا لم يكن أسّه المبادئ الصحيحة الفاصلة بين الحقّ والبهتان والصدق والبطلان المرشدة الى الحكم السديد المنزّه عن السفه والتنديد . فكم من عالم علاّمة وجهبذ فهّامة قد مال عن جادة الحقّ الصريح اذ اعتنق المبادئ الفاسدة وتتبّع منها الآثار . فكان علمه ضرراً جسيماً قد أتى بالنفوس الأبيّة وقادها الى وهاد الضلال والهوان . فكم من فلاسفة عظام تحوّلت حكمتهم خزعبلات صبيانية لا تقف عن حدّ البتة . قد جرّهم اليها فاسد برهان غيرهم من الفلاسفة ممّن زاغ علمهم عن صحيح المبادئ وحقيقتها . فزجوا الحق بالباطل . وحبست حكمتهم جهلاً بحتاً وأمسوا على شفا ساقطين من أعين كل ذي علم صحيح . وكم غيره قد جاء بعظمة الإرادة ووافر العادة لكلّ مطالع لمصنّفاته . نجيبٌ أو سامعٌ . دُرَرُ اقواله العسجدية . فكان لكلامه وقع عظيم في القلوب . ممّا ان نال بين القلوب الحنّة وشيء الملفّقة بساطع البرهان الواضح . ظهور البدر في كبد الأفق . وكم يرينا شرف العلم وضرورته معاً وقوّة اعتبار الشرقيين قاطبة لذويه في كل عصر . قُل لنا ما الذي جعل اوغسطس قيصر يجلس فيرجيليوس سائق الظعن على مائدته فيموته بمعزل عن سائر عظماء بلاطه . سوى انه كان شاعراً مبدعاً . وما الذي حمل «نيرون» الملك على ان يستدعي رجلاً ذا اخلاق فيهذّبه ويدرّبه في أحكامه . الاّ لاعتباره علمه وحكمته . أو ما ان نيرون الدني الحسب والزريّ النسب رفعته فصاحته الطبيعية مقرونة بالصناعية . وأعلته على من سواه حتى فوّضت اليه زمام القنصلية وناصيتها . حتى انه ملّص الدولة الرومانية وخلّصها من براثن الدمار . بأن كان ينبّه في أمر تنبه في كل وادٍ وناد . ويجمع الأحزاب ليصلي ضدها نار الحرب

العوان : أترى بالسيف أم باللسان أخرجه من المدينة العظمى : وعمرك بسداد البرهان وفصاحة اللسان : فتبًّا لعصر فيه شمس زهرة مشرقنا في العلوم ذبول : وشابها خمول : فاسترقّيها الغربيون وكنّ عنها متقاربين غافلون . دويٌّ لآونة مقرونة فيها اشتعرت نار الهيجاء . فأثارت الفتن والحروب وأحرقت مكاتبنا الشرقية الغنيّة بسائر الفنون . وما نحن الاّ الخاسرون : فجرى انه بعد ان كنا في بحبوحة الدفاتر والمحابر . أمسينا صفر اليدين . نضرب أيدينا حسرةً وندماً . ولات ساعة مندم : فكان بعد أمد طويل ان من يد اجنبية . بل بالأحرى غربية : عدنا نلتقط بعضاً من شوارد مصنّفاتهم . لمّا ان وطئت أرجلهم بلادنا السورية وارضنا اللبنانية أو ما يغني عن الخبر العيان وينبئ عن النار الدخان معاً : كل كتاب علم تاريخياً كان أم جغرافياً أو منطقياً او فلسفياً او كيماوياً الى غير ذلك من الفنون كان أم منقولاً عن لغاتهم الغربية منها الى العربية أو بعده لم يبرح غير منقول عنها : فألجأتنا الضرورة الى مكابدة عرق القربة وبذل الدم : ناهيك عن اخال في اقتباسها عنهم : ويا ليته يتسنّى لنا احرازها كما يجب لتأتي بني وطننا بفائدة كاملة منها : وعلى سائر الأحوال فنحن هم من الشاكرين كيف لا وهم جمعوا شملها بعد ان كادت تذهب فريسة الاهمال والنسيان وتحاك عليها عناكب الامتهان : سيما ولأنهم ولجوا في هذه الأعصار المتأخرة بلادنا : وأنشأوا في لبناننا المدارس وأحيوا فيه العلوم والفنون بعد ان كانت ماتتة ؟ : بل أحيوا لغتنا العربية بالمعارف والعلوم : فلهم منا مزيد الشكر سيما ولأنهم حرّكوا اريحية بعض أهل الوطن وأغرَوهم بالمثل على تشييد المدارس في كل نادٍ وصقع : فازدهرت والحمد لله في لبناننا أدواح العلوم وهي على ساق النجاح وقدم الفلاح : فنبغ منها جهابذة فطاحل وعلماء أفاضل قد بعُدَ صيتهم كضوء القمر وشمل فضلهم البدو والحضر .

ولمّا كان سيادة الحبر النبيل والجهبذ الأثيل الشهم المقدام وعلم الأعلام الفرد الهمام راعينا الجليل السيد بطرس البستاني الفائق الشرف لا يفتأ ناظراً لكل عمل ميزور بعين الاعتبار : مدّعياً وهو مجبول منذ فطرته بالمبرّة والصلاح وسداد الرأي والحزم في العزم والثبات : واليأس في اليأس : والاقدام على الأخصام : كيف لا وهو الذي لا تروعه الأهوال لو أنها من الأغوال : ولا يرضى الهوان : ولو جاء بالخيل والخيلان : ولا بدّ وانني لو كتبت في وصف صفاته الغرّاء طالباً أمدّ الإسهاب : او قلتُ في مدحه مديحاً أطناب الأطناب : لما كنتُ بعد الاجتهاد الاّ سائلاً في جنب

التقصير ؛ او ذهبتُ بنفسي عن ان أهدي للشمس نوراً وأزيد في البستان زهوراً ؛ فأكون كجالب المسك الى أرض الترك والعنبر الى البحر الأخضر . والعود الى بلاد الهند ، متّعنا الميمن ببقاء ذاته الكريمة ما توالت الأيام وتناءت الأعوام .

دعا بأفضل الأساتذة علماً وأدباً وتقىً ليقوم باعباء هذه المدرسة[1] الكريمة المشيّدة من المثلث الرحمات المرحوم والضربي السيد يوسف رزق رزقنا الله شفاعته في الدارين آمين . فجاء إناء مصطفى قد تناهت المدرسة في ايامه نجاحاً وفلاحاً وعظمت فائدتها للطلبة النجباء باعتناء ذاك الغوار الهمام من لا يفتأ اناء الليل واطراف النهار باذلاً معظم الهمّة والجدّ في اغراء الطلبة وحضّهم على اقتباس العلوم واللغات وارضاعهم اياها ممزوجة بعلم الآداب والتربية المسيحية الحقّة . ولعمري ان الاطناب في مدحه لضربٌ من العتب هو حضرة الأب يوسف الخطيب ؛ وليس الخبر كالعيان ؛ كفانا مؤونة البرهان على براعته ونجابة الطلبة تلامذته ما أجاد به في هذه الرواية من فنون الفصاحة الغربية واساليبها العجيبة . وما فجّرت من ينابيع الأدب والنكت والتحبّب ، ممّا استحقّ ان يكتب بذوب الذهب ؛ ولا غروّ ما ابداه الطلبة من التمثيل الحسن والتشخيص الكامل بسائر الحركات المطلوبة والأسلوب الظريف بسرد الأقوال كل بمقامه كنظامه ؛ تدأب التلميذ وقدره ان يكون مثل معلّمه . فليهنِ بحضرة استاذهم ومؤازريه مزيد الشكر وانماء فيّاض هذه المدرسة ونجحها رحماً رحماً ؛ ولا زالت مضربة على غاية الهمّة والعزيمة في سبيل نجاح الطلبة ؛ وهم له من الخافقين آمين .

اللهمّ حمداً نسديك ايها المنّان وشكراً نهديك ايها الحنّان على ما اولينا من إلاء نعمك المدرارة التي سبغتها علينا بايهابك ايّانا ، يا أفضل الملوك عزّاً واقتداراً وارفعهم مجداً وفخاراً خاقان البرّين وسلطان البحرين من ازدهرت في ايام جلالته ايّده الله ؛ العلوم والفنون في ارجائنا السورية ؛ مليك الورى وليّ نعمتنا بدر امتنان السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان أيّد الله سلطته ما نأى انقارظان وتوالى الفرقدان وتتابع الجلوان ؛ ثم حمداً نسديه لتلك الحضرة الشاهانية والذات الخاقانية على ما نفحت به لبناننا بمن هو أشهر من نار على عَلَم في العدالة واستقامة الرأي والأحكام ، ذي

(١) مدرسة عين ورقة الشهيرة .

الدولة متصرّفنا واصه[1] باشا المعظّم أدام الله دولته مدى الدوران : ولي الذات الكريمة الفخيمة . مزيد الشكر الأوفر على ما أوليته من المنن بما أسعدنا الله بسعده الشهم الهمام والنضل المقدام عزتلو الامير سعد الشهابي[2] الأفخم ادامه الله العليّ في يمن السعد والاقبال هو وسائر ارباب الحكومة الكرام .

الشمّاس فتح الله الخوري

١٨٧٤ – ١٨٩٧

شعاعٌ منيرٌ : وضياءٌ وهّاج انطلق في سماء النبوغ : فأحاط العبقرية بهالة من ذكائه : وتدفّق وحيه قبسات وضّاءة : ولكن الموت الغاشم أطفأه مبكرًا وحرّمَ وطنه من ذاخر بيانه : ورائع جنانه .

وُلد في بكاسين في ١٦ من حزيران ١٨٧٤ من والدين كريمين هما داود فتح الله الخوري[3] من بكاسين ومريم حبيب جبر اني عتلم من مشمّوشه : ونشأ وترعرع على حبّ التقوى والنضيلة . ودرج في أسرة بينها وبين الأدب لواء معقود : ووتر مشدود : وانتقل كالطير المغرّد من غصن الى غصن : ومن مدرسة الى أخرى ، تظهر على وجهه ألوان الذكاء والنبوغ ثم الى ان تلقّى علومه العالية في مدرسة عين طورة : فأظهر فيها نبوغاً كبيراً . وبدا كالكوكب عند انبثاق الفجر .

ومن سمات ذكائه : وهو لما يبلغ الثالثة عشرة من عمره انه أخذ ينشد أبياتاً شعرية من نظمه : تدلّ على ما ينطوي عليه صدره من نبوغ مختزن : واخذ يتدرّج في تحصيل العلوم : واكتساب المعارف : والأيام تزيده حكمةً وبلاغةً : حتى أصبح له أدب عالي المنار ، واتّصل أمره بالسعيد الذكر المطران بطرس البستاني فقدمه من جملة الطلبة الذين سيتلقّون علومهم العالية في مدرسة رومة العظمى ، هذه المدرسة العظيمة التي أخرجت للطائفة والبلاد باقة من العلماء الأعلام تفتخر بهم على مرّ العصور ، خدموا الدين والوطن وتميّزوا بالمعارف والمدارك والنضيلة .

---

(١) حكم من ١٨٨٣–١٨٩٢ .
(٢) قائمقام البترون في سنة ١٨٨٣–١٨٨٦
(٣) توفي والده سنة ١٩٠٧ وجده سنة ١٨٦٥ ووالدته سنة ١٩٠٩

ان المدرسة المارونية في رومة أنشأها الطيّب الأثر البطريرك ميخائيل الرزّي (١٥٧٢—١٥٨٥) بمساعدة البابا غريغوريوس الـ١٣ فازدهرت ازدهارًا كبيرًا ؛ وأنجبت علماء وبطاركة ومطارنة ونسّاك . ملأوا بلادنا نورًا وشعاعًا . بتآليفهم وترجماتهم وآثارهم التي ما برحت مرآة يستنار بها .

وفي سنة ١٨٩٣ جدّد تلك المدرسة الثالث الرحمات المطران الياس الحويّك ١٨٤٣—١٩٣١ (البطريرك فيما بعد) واختار لها التلاميذ الأذكياء لإعادة مجد الطائفة وازدهارها . وكان بين المنتقين الشماس فتح الله داود الخوري . فسافر مع الفوج الأول ؛ ولقوا مشقّات وشدائد في البحر . وحظوا بمقابلة السعيد الذكر البابا لاون الـ١٣ الشهير وهم بالزيّ الشرقي .

وفي ١٧ من ت ٢ من تلك السنة دخل كلّية البروباغندا وهو يجهل اللغات اليونانية واللاتينية والايطالية . أساس العلوم فيها ؛ فاثبرى باجتهاد عظيم عنيف الى درسها . ليلاً ونهارًا حتى أدرك مبتغاه ؛ وأصبح يشار اليه بالبنان . فأعاد بذكائه ؛ ذكرى الاقدمين من مواطنيه العباقرة الذين سبقوه الى مدرسة رومة كالسماعنة والخاقلاني والصهيوني .

واخذ يغرف العلوم والمعارف ؛ حتى فرّق المتقدمين . وبلغ القمّة ؛ ولكن السهر المتواصل . والحرّ اللافح . ورطوبة المكان ؛ أثّرت في صحّته النحيفة . فانحطّت قواه . وذبل جسمه . فأشار الأطباء عليه بالراحة . وما كان ليتحمّل تلك الصدمات . فزرح تحت عبئها وهو في طريقه الى بلوغ القمّة .

وكانت السنة الثانية لغربته ؛ وفي أواخرها بدأ المرض الوبيل يدبّ في جسمه ، فاهتمّ لأمره المطران الياس الحويك ؛ بحنانه وعطفه ؛ ووضعه في المستشفى ؛ . ورأى الأطباء أن ينتقل الى بلدة بحرية ؛ لعلّ تغيير الهواء يفيد صحّته ؛ فأرسله الى (بورتودنسيو) فتقضى فيها ردحاً من الزمن ؛ ظلّ يواصل فيه دروسه ؛ ويصرف وقتاً غير يسير في الكتابة ؛ لكن تغيير الهواء لم يأت بنتيجة ؛ بل زاد الداء استعصاء ؛ فأعيد الى رومة ومنها الى لبنان ؛ وأصيب في الطريق بنوبات أليمة ؛ فأخذ يضرع الله الى أن ينعم عليه بالوصول الى بلدته العزيزة بكاسين ؛ فرفق المولى بشبابه وأوصله الى أهله ؛ فنتحوا صدورهم للعائد الغالي ؛ وأحاطوه بكل عناية ؛ لكن الداء كان قد نخر عظمه ؛ ولم يلبث ان لقي وجه ربّه في ٢٩ من ايلول سنة ١٨٩٧ فعُقدت له مناحة عزّ نظيرها .

وكان أول تلميذ لاقى منيّته من تلامذة المدرسة المارونية بعد تجديدها ؛ واختطف المطران حويك بالذبيحة عن نفسه ؛ وأقامت له أسرته ضريحاً فخماً من الرخام الأبيض . ونُقشت على قاعدته بلاطته الأبيات التالية :

يدُ الردى من رياض العلم قد هصرت غصناً تبدّل بالأثمار أملودا
وقد جلا عن ديار الهمّ مرتقياً جنّة الخلد مغبوطاً وحسودا
وعينُ أهليه والتاريخ ساكبةٌ تبكي على قبر فتح الله داودا

١٨٩٧

ويطيب لنا ان نثبت رسالة شائقة عنه كتبها الينا زميله في الدراسة في رومية المرحوم العلامة الخوراسقف بولس قرألي تنمّ عن تقديره واعجابه بمواهبه الفياضة الغزيرة وهذا نصها بالحرف :

« حضرة الفاضل المحترم

تسلّمت كتابكم الحامل تاريخ ٥ ايار الجاري وأنا على أهبة السفر من مصر الجديدة ؛ فلم اتمكّن من تلبية سؤالكم حالاً . فأشكر لكم حسن ظنكم بي وسأنشر قريباً ردّي على التيكونت طرازي في كرّاس على حدة .

امّا عن المرحوم فتح الله الخوري البكاسيني رفيقنا في مدرسة رومية المارونية فاقول : انه كان على جانب كبير من الذكاء والاجتهاد حتى انه برز على جميع اقرانه في السنتين اللتين قضاهما في رومية وكنا نتلقى الدروس في كلية البروباغنده مع جمهور غفير من شتّى الملل والبلدان .

ولمّا كان رحمه الله يعرف قليلاً من اللغة اللاتينية ؛ ادخل صف الفصاحة فاجتهد حتى فاز بالجائزة الأولى في هذه اللغة مع انه سابقاً لم يكن يعرف منها الاّ النزر القليل .

ولما كانت مسابقات السنة الأولى من الفلسفة فاز بالجوائز الثلاث المعيّنة لصفّه وهو أمرٌ لم يسبق له مثيل في الكلّية منذ خمسين سنة ؛ ويُكافأ الفائز بثلاث مداليات ذهبية تُضرب باسمه ويحضر حفلة تسليم هذه الثياشين جميع كرادلة المجمع مع رؤساء وتلاميذ جميع المدارس التابعة للكلّية ثم يستقبله الحبر الأعظم في جلسة خاصة ؛ ولمّا كان في إعداد هذه الحفلة مشقّة ؛ رأى رئيس الكلّية ان يضع معه في احدى الجوائز التلميذ الذي جاء بعده في المسابقة وان يعطي المذكور المدالية الثالثة ، وقد انتابه في السنة الثانية

مرض ابنك المستعجل وكان يبصق دماً بكثرة عند النوبات . فأعيد ان بكاسين حيث توفي متأسفاً على شبابه ونبوغه . هذا واختم بالدعاء خصوصكم بسوء نصحة والتوفيق .

تذكري في ٢٤ ايار سنة ١٩٤٩

اخوكم اسقف بولس قرألي ع ا د

على ربية من روابي لبنان يضجع هذا الفتى النابغة . يطربه تغاريد الحسون . وزقزقة العصافير : وينعش رميمه نفحات عاطرة من اريج الصنوبر والشيح والزيتون .

يوسف خيرالله نصر

١٨٤٩ — ١٨٨٣

هو يوسف بن خيرالله بن غطاس مسعد سمعان ابو رعد نصر ولد في بكاسين سنة ١٨٤٩ وتوفي فيها في ٣ تموز سنة ١٨٨٣ كان كاتباً مجيداً وشاعراً مطبوعاً . نبغ الأدب صغيراً وما إن قسى عوده قليلاً حتى صار قبلة الأنظار . فألحّ عليه المعجبون بأدبه بفتح مدرسة في قريته لتعليم الاحداث . فجاراهم في رغبتهم وفتح آفاقاً جديدة للطلاب . فطار لمدرسته صيتٌ عاطر في الأنحاء المجاورة حتى أينعت وأزهرت في ذلك العهد المظلم.

وقد ترعرع فقيدنا في جوّ عابق بشذى العلم اذ تثقف على والده ١٨٠٠—١٨٧٢ ثقافةً مكّنته من معالجة الأدب والتقريض . فأفاض في ذكر محاسن الطبيعة : وتغنّى بمجد لبنان : وقبل أن يتمّ نوره : عراه الأفول وهو في عمر البدر : وانحجب رمسه عن العيون وهو في طريقه الى أوج مجده : فعبث الموت بتلك النفحات العابقة بروح الوطنية .

هكذا تهوي النسور من عل قبل أن يتمّ تحليقها : وينطفئ نور العباقرة قبل أن يكملوا رسالتهم . ومن شعره قوله في وصف الظالم :

سألتُ من الظلم الوبيل جروحي ... وجزعتُ ممّا قد ألمّ بروحي
يا ظالماً نشرّ الوباء على الورى ... من خبث قلبٍ مبتلىً بقروح
وانقضّ يفتك بالبريء ووجهه ... ينـدي بكل وقاحةٍ وقبيح

التمثال الحجري لفتح الله بواب الحجري

كالعلّ يكمنُ في ثنيّات الثرى ... ويدبّ بين شوامخ وصروح
تتنسّمُ رياحك بالأنوف وأفسدتْ ... نفحات شيحٍ في ربىً وشيح
ذئب بمظهر آدميّ خاطف ... متدرّعٍ بصفاقةٍ وطموح
أين النصيرُ؟ وأين منك صوابه؟ ... قد طار منك على بساط الريح
يا فاتحاً باب التعدّي للورى ... الظلم حلّ ببابك المفتوح
العدل قسطاس البريّة كلّها ... والظلمُ أقبح من أشلّ كسيح
حُطمت عروش الناجحين. وبعدهم ... قد زال كالأحلام بعد فتوح
لم يرهب التيجان إصليتُ الردى ... والموتُ يفتحُ بابَ كلّ ضريح
لا شيء في هذا الوجود مخلّدٌ ... غير الفضيلة أو ثناء الروح
تتمرّغ الجهّال في آثامها ... وتتيه عُجباً من سماح مديح
والزاهدون يذلّلون جسومهم ... بالصوم مع سهرٍ ولبس مسوح
والعاقل النطن اللبيبُ من اتّقى ... الرحمانَ في حمدٍ وفي. تسبيح

الدكتور بديع غانم

١٨٩٣ – ١٩٢٥

كان صبيّاً نابغاً واديباً عالي الثقافة غزير الأدب وافر المروءة ؛ ذوى غصنه الرطيب يانعاً وهو في طريق جهاده ، فخسرت به الانسانيّة عضواً عاملاً نافعاً كان يُرجى منه الخير لأمته وبلاده ، فالتاعت عليه القلوب وتفجرت المقل وشقت الجيوب .

وُلد في حيفا صباح الاثنين في ٦ آذار ١٨٩٣ [1] وكان والده اذ ذاك مأموراً لإدارة حصر التبغ والتنباك العثماني . وجاء وطنه صغيراً فاستنشق من نسماته البليلة ، عبير الصنوبر التواح فترعرع في ظلاله وسحر بتكوينه وابداعه ، وجعل طابعه وساماً في قلبه ، ودرج من حضن الفضل والتقوى فنشأ ذكياً مولعاً بالعلوم والآداب ودخل المدارس الابتدائية فكان من الناجحين بدروسه وقدوةً أترابه في سلوكه . عرف به خاله المرحوم حبيب بك غانم المحامي الشهير بمصر ، انه على قدر كبير من الذكاء ، فتوسّم فيه خيراً ، وأخذه

(١) راجع للشرق – ٥٨ ؛ ١٩٦٤ ، ص ١٣٥ ، الجزء الثاني ، آذار – نيسان ؛ ورسالة نلب يسوع سنة ١٩٢٦ ، ص ٢١٩–٢٢٥

تعيّنه الى مصر حيث ادخله مدرسة الفرير في القاهرة فاجتاز فيها تسع سنين باجتهاده وتفوّقه على اقرانه علماً وادباً . ولمّا حاز على الشهادات العالية اختار ان يتعلّم مهنة الطب الشريفة . فجاء لبنان ودخل مدرسة الآباء اليسوعيين في بيروت ١٩١٢ ولم تكد تمرّ عليه السنة الأولى والثانية حتى تعكّر جوّ السياسة العالمية فاستدعي الى مصر لكنه طلب ان يسافر الى باريس ليواصل فيها دروسه الطبية . فمنعه أقرباؤه . وقد كان البحر غير آمن لكثرة الألغام أوانئذ : على انه بقي مصرًّا على فكرته . حتى تمكّن من الذهاب الى باريس . وهناك أكبّ على الدروس الطبية بعزم ثابت وايمان كبير حتى برع في الطبّ ، وتخصّص في الأمراض الداخلية والسكّري ، وعيّن معاوناً في مستشفى لجرحى الحرب الكبرى ، ثم مستشفى « لابروس » ثم تنقّل في مستشفيات ليون وبوردو يعالج الانسانية المتألمة ويساعد الجرّاحين في عمليات جراحية دقيقة اكسبته خبرة ومهارة ، واطّلع على احدث الاكتشافات والاختراعات والتجارب الطبيّة . وقد قدّرت الحكومة الفرنسية خدماته الانسانية فمنحته ثلاثة اوسمة وهي : وسام صليب الحرب ، ووسام الاستحقاق الفرنسي ، ووسام ذكرى اليتيم لمساهمته في بناء هذه المؤسسة وتحويل كامل راتبه لمساعدة الأيتام .

ولمّا وضعت الحرب الكبرى اوزارها في اواخر ١٩١٨ عاد الى بيروت على متن طراد حربي فرنسي عن طريق حيفا فهنّأه الشاعر شكري غانم ، وقد كان بينهما رسائل ودّية ، وتقدّم لفحص البعثة الطبية الفرنسية فنال شهادة دكتور بتفوّق معتبر ، وخرج تملأ نفسه الآمال ، وتوّج اعماله بعيادته المرضى مجاناً بعد ان فتح له خاله في مصر عيادةً جهّزها بأحدث المعدات والآلات الطبية . ولم ينعم طويلاً بعطف خاله الذي ما لبث ان انتابه مرض القلب حينذاك . فلازمه بديع مدة اربعة اشهر ، باذلاً كل معارفه ومواهبه في خدمته ، لكن تلك العناية الجهيدة لم تكن لتقوى على الداء فتنفع المريض العزيز ، فان العلّة كانت قاضية ، وهكذا قضى ذلك المحسن الكبير ، فبكاه بديع البكاء المرير وحفظ له طول حياته الذكر الجميل .

وكان اثناء اقامته في باريس قد جمعته مع بعض ادبائها صلات ودّ وأدب ، ظلّوا يراسلونه الى نهاية أيامه كما له مقالات ومحاضرات وابحاث طبّية كان ينوي نشرها في كتاب ، تعميماً للفائدة ، حالت ظروف مرضه دون قصده ، وقد فقدت بعد مماته .

وكان رحمه الله يقصد وطنه بكاسين صيفاً انتجاعاً للعافية : وقد ثابر على خطته في معالجة الفقراء والمساكين وتقديم الدواء لهم مجاناً . مهتماً بشؤونهم كل الاهتمام : فخفف كثيراً من آلامهم واوجاعهم : الى أن أصيب هو بداء السرطان في معدته : ولكن عبثاً يعالج الطبيب نفسه : فأعجزه المرض العضال وقطعه مكرهاً عن مزاولة الطب لنفسه وللغير : والتجأ الى الله الطبيب الأعظم . فزار الأراضي المقدسة : ثم قصد الى باريس فعالجه الاختصاصيون وأجروا له عملية جراحية عسيرة تحمل اوجاعها مدة ستة أشهر لم يستفد منها شيئاً : فأشار عليه الأطباء بالرجوع الى لبنان لعل طيب الهواء والماء يطيلان حياته ولو قليلاً : فترك باريس وفي قلبه حرقة : وفي عينه دمعة : وعرج بطريقه على سيدة لورد العجائبية ملتمساً منها الشفاء بإيمان كبير : وواصل سفره الى بكاسين : ولكن ما لبث ان اشتد عليه الداء : فدخل مستشفى راهبات المحبة في بيروت : وكان بتبتله وصبره يثير اعجاب الراهبات القائمات بخدمته : وكان لا يدع يوماً يمر دون ان يتناول القربان الاقدس . وبعد مدة قضاها في المستشفى متقلباً على سرير الآلام : أيقن أنّ لا حيلة بشرية لشفائه : فعاد الى بكاسين محمولاً على سريره ومرضه يتثاقل : وهو يتحمل اوجاعه العائلة بصبر القديسين : وكان يقضي اوقاته في غاية الصبر : كناسك متعبّد ترك العالم وانجاده : مصغياً الى خرير المياه في الأودية وزقزقة العصافير في الحقول : متمنياً لو أنّ القدر المشؤوم يفسح له في الأجل ليستكفي من ذلك : قبل ان يقذفه الموت الى لجة الفناء والزوال .

وقبل موته استقدم أحد اصدقائه وأملى عليه وصيته وهي بان يقدّم خمسين ليرة مصرية : نفقات مراحل درب الصليب لكنيسة القديسة تقلا في وطنه بكاسين والمال الذي اقتصده انفاقه على الفقراء والمعوزين .

أسكت الموت ذلك القلب الكبير وهو في ريعان الشباب وزهو الحياة يوم السبت في ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٥ وأقيم له مأتم عزّ نظيره : ودفن الى جانب خاله حبيب بك غانم مأسوفاً عليه كل الأسف .

وقد تلقّت عائلته الكثير من رسائل التعزية والمراثي التي تعرب عن أسفها العميق ومشاركتها في المصاب الأليم : نذكر منها المرثاة التي أرسلها لوالدته من البرازيل المواطن اسكندر خليل قزحيا مطر (١٨٦٨–١٩٣٩) دعاها رثاء البديع وهذه هي :

خليليَّ مرّا بي على خلّ دوحة ... صباحاً . وقولا والدموعُ سجام
فواحرَّ قلبي يُبصر الغصن يانعاً ... ويُخسف ذاك البدرُ وهو تمام
ويُشرق في نيل المقابر بينا ... مكانُهُ في الدنيا أسيٌّ وظلام
اسعك من دنياك أن كرامها ... قليل . وبعض نحرّ فيها مقام
مررتَ بنا فيلمّ وعدتَ كأنما ... ألمَّ بنا طيفٌ ونحن نيام
وسرتَ طلوع الفجر مضجع الخُطى ... بقفر بدا الموت فيه ذمام
كأني بذاك النعش والناسُ حولَهُ ... عريسٌ الى الاكليل قام فقاموا
أبعدك في الدنيا عزّا (لفريدة) ... غدتْ هدفَ الأقدار وهي سُهام
تمرّ ليالي الدهر سوداً كأنما ... عليَّ مسرّاتُ الحياة حرام
بماذا أعزّيكم وقد جلّ خطبكم ... وقصّر فيه منطقٌ وكلام
أبيتُ ولي حزنٌ نديمٌ مسامرٌ ... دموعُ الأسى راحي وكفّيَ جام
ومَن كان مثل (اسكندر) صادق الوفا ... اذا جنّ حزناً ما عليه ملام

١٩٢٥